قسم الآثار

الفرقة الأولى

تاريخ وحضارة الشرق الأدنى القديم

د. محمد رشاد المقدم

١. الأصل والتسمية.

الفينيقيون هم إحدى الجماعات السامية التي نزحت من شبه الجزيرة العربية إلى الإقليم السوري في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، وقد اختلف المؤرخون في تحديد الموطن الأول لهم، فمنهم من يرى أن هجرتهم كانت من وسط الجزيرة العربية لاسيما نجد، بينما ذهب بعضهم الأخر إلى إنهم من العروض لاسيما البحرين والسواحل المقابلة لها، في حين ذهب فريق ثالث إلى إنهم من الأجزاء الجنوبية أي من اليمن. وأيا كانت المنطقة التي خرجوا منها من بلاد العرب، فالواقع الذي يعيننا هنا أن شبه الجزيرة العربية كانت دونما ريب هي الموطن الأصلي لهذه الجماعات السامية.

ومثلما اختلف الباحثون في الموطن الأصلي اختلفوا أيضًا في أصل اسمهم، فمنهم من يرى بأنه سامي، حيث اشتقت الكلمة من اللفظة السامية " كنع" أو "كنغ" بمعنى المنخفض، أي الأرض المنخفضة التي سكنوها وخاصة على الساحل للتمييز بينها وبين الأراضي الجبلية المحاذية لها، ومنهم من يرى بأنه من أصل هندو أوربي، حيث اشتقت الكلمة من اللفظة الحورية " كناجي" بمعنى صبغة حمراء، ومنها أخذت الكلمة الكلدانية "كناخي" التي حرفت إلى كنعان، أي بلاد الأرجوان لشهرتها بهذه الصبغة التي كان أهلها يستخرجونها من الحيوانات البحرية التي كانت تعيش بالقرب من سواحلهم، وقد عرفها اليونانيون باسم فينيقيا كمرادف لهذه التسمية، وكانت تدل في البداية على الساحل السوري وغرب فلسطين، ثم أصبحت تدل بعد ذلك على فلسطين وجزء كبير من الأراضي السورية.

٢. دويلات المدن الفينيقية.

لم تنجح الجماعات الفينيقية على مدار تاريخها في تأسيس دولة قوية موحدة بل انتظمت في عدة مدن صغيرة ذات حكومات منفصلة تحميها أبراج وأسوار عالية، ويعزي ذلك ببساطة إلى طبيعة الإقليم الذي عاشوا فيه، حيث كان بمثابة قنطرة يعبرها الغزاة الآسيون القادمون من منطقة الجزيرة قبل نزولهم إلى وادي النيل، كما تعبرها القوات المصرية القادمة من الوادي تتعقب الغزاة، وهم في طريق فرارهم بعد دفعهم عن حدود مصر، كما كان للحواجز الطبيعية التي تجعل المواصلات صعبة عبر الساحل الفينيقي أثر في طبيعة النظام السياسي الذي تبنته هذه الجماعات، حيث اتبعت نظام دويلة المدينة (City-State).

وكثيرًا ما كان يكثر التطاحن بين هذه المدن وتنشب بينها الحروب، ومع ذلك فإنها كثيرا ما كانت تتحد أمام هجمات المعتدين من الشعوب الأخرى، وقد تحصل إحدها على الزعامة وتتمتع بنوع من السيادة على الآخرين، ولكن هذه الاحلاف كانت لا تستمر طويلًا خصوصًا لأن بعض المدن كانت تحاول الانتفاع على حساب البعض الآخر.

هذا وقد بلغ مجموع دويلات المدن الفينيقية حوالي ٢٥ مدينة بعضها كان لها أثر كبير في الإنتاج الحضاري، وأخرى أقل أهمية غير أن أهمها على الإطلاق يكاد ينحصر في الدويلات الآتية:

١.٢ صور:

تعد صور واحدة من أعظم دويلات المدن الفينيقية ومن أعرقها تاريخًا وقدمًا، فقد شهدت أعظم الأحداث التي جرت على أرض فينيقيا، ومن على شاطئها انطلق " قدموس" ناشرًا الحروف الأبجدية الفينيقية.

وقد بدأت مدينة صور تاريخها بوصفها حصنًا، غير أن ميناءها الآمن وسلامتها من الغزو، سرعان ما جعلها حاضرة فينيقية، ومأوى لخليط من التجار والعبيد الذين قدموا إليها من جميع بلدان البحر الأبيض المتوسط، وهكذا ما أن حل القرن التاسع قبل الميلاد حتى كانت مدينة صور غنية في عهد ملكها حيرام (٩٨٠-٩٣٦ ق.م) الذي عاصر الملك النبي سيدنا سليمان عليه السلام (٩٦٠-٩٢٢ ق.م).

وظلت مدينة صور في عهد خلفاء الملك حيرام محافظة على استقلالها وثرائها -القائم على التجارة والغني وليس الغزو- حتى أيام الإسكندر الأكبر، والذى رأى في استقلالها تحديدا لعظمته وعبقريته الحربية، ومن ثم فقد عمل على احتلالها في ٣٣٢ قبل الميلاد، ثم قضى عليها نهائيًا ازدهار مدينة الاسكندرية العظيمة.

٢.٢ صيدا:

تقع صيدا على مبعدة ٤٥ كيلو متر إلى الجنوب من مدينة بيروت، و٤٠ كيلو متر شمالي صور في سهل ساحلي شديد الخصوبة، ولكنه ضيق ينحصر بين السفوح الغربية لجبال لبنان الجنوبية وبين البحر، ويصل اتساعه إلى ما يقرب من ميلين.

وقد اشتق اسم صيدا من الصيد أي صيد الأسماك، وإليها ينتسب الإله الوثني الفينيقي صيدون، ومن ثم فقد ذهب بعض الباحثين إلى أنها كانت محله صغيرة لصائدي الأسماك خصوصًا أن كتابات المورخين اليونانيين والإسلاميين كثيرًا ما فسرت اسم صيدا بكثرة السمك فيها.

ولكن في الوقت ذاته نجد التوراة تنسب مدينة صيدا إلى صيدون الابن الأكبر لكنعان بن حام بن نوح، ومن ثم فهي تربط بين تأسيس صيدا وبين الكنعانيين الذين عرفوا أيضًا باسم الصيدونيين، وهكذا تنسب التوراة الكنعانيين إلى الحاميين وليس إلى الساميين لأسباب سياسية ودينية مع أنهم كانوا يعلمون حق العلم ما بينهم وبين الكنعانيين من صلات عنصرية ولغوية، وربما جاء هذا النسب بسبب وجود جاليات فينيقية وسبئية في إفريقيا، فعد كتبة التوراه هؤلاء من الحاميين.

٣.٢ أوغاريت.

تقع مدينة أوغاريت على مسافة ميل واحد عن مينائها المسمى المينا البيضا الذي يقابل جزيرة قبرص، وكان يقوم ازدهارها على حركة التجارة التي كانت تمر في مينائها. وقد استخدم سكانها في لغتهم علامات مسمارية بسيطة في الكتابة ولكن هذه الأبجدية التي شاعت في أوغاريت في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، واتسع نطاق استخدامها في القرن الثالث عشر قبل الميلاد بقيت أبجدية محلية، ولم يتهيأ لها الانتشار، واندثرت مع إنهيار أوغاريت واضمحلالها في أوائل القرن الثاني عشر قبل الميلاد نتيجة غارات شعوب البحر التي أحدثت موجه كبيرة من التغيرات الديموغرافية في المنطقة، وتسببت في ميلاد بعض القوى السياسية الجديدة.

٤.٢ جبيل.

تقع جبيل (بيبلوس اليونانية) على خليج صغير عند مصب نهر إبراهيم (أدونيس) على بعد ٤٥ شمالي بيروت، وقد اشتهرت هذه المدينة بتجارتها البحرية، إذ كان لها دور كبير في تسويق تجارة خشب الآرز الذي تشتهر به المنطقة، ومن هنا ارتبطت بعلاقات تجارية بجيرانها لاسيما مصر، حيث خضعت للسيادة المصرية لفترة طويلة.

٥.٢ أرواد.

أرواد هي جزيرة مقابلة لساحل مدينة طرطوس السورية، ويعود تأسيسها إلى مرحلة موغلة في القدم، حيث هناك من الباحثين من يرى أن مؤسسها هو الأروادي بن حام بن نوح، وذد ازدهرت هذه المدينة وظهرت قوتها حتى عدت إحدى المدن الفينيقية الرئيسة، ولكن تعرضها لغزوات المصريين والآشوريين المتلاحقة قوضّ إقتصادها وقوتها السياسية حتى أفقدها مركزها السياسي والإقتصادي.

ويجدر القول هنا إلى أن المدن الفينيقية وقعت تحت السيطرة الآشورية اعتبارًا من عام ٨٦٨ ق.م و حتى سقوط الدولة الآشورية، حيث انتقلت السيادة عليها للدولة الكلدانية، ومن بعدها للدولة الفارسية الأخمينية. وخلال الفترات السابقة كانت فينيقيا تخضع أحيانًا وفي أوقات متقطعة إلى النفوذ المصري. وظل النفوذ الفارسي قائما بين مد وجزر إلى أن نجح الإسكندر الأكبر في هزيمة الفرس في معركة ايسوس سنة ٣٣٣ ق.م، فانتقلت السيادة بموجب نتائج هذه الموقعة للإسكندر الأكبر، وظلت فينيقيا تنتقل بولائها بين البطالمة والسلوقيين خلفاء الإسكندر في مصر وسوريا حتى جاء

القائد بومبي إلى الشرق في عام ٦٤ ق.م، فدخلت تحت حكم الرومان، ومن بعدهم البيزنطيين حتى الفتح العربي في القرن السابع الميلادي، حيث دخلت تحت الخلافة العربية الإسلامية.

٣. مظاهر الحضارة الفينيقية.

١.٣ نظم الحكم والإدارة:

تشير المصادر التاريخية إلى أن النظام الملكي كان هو النظام السائد في مدن الساحل الفينيقي ابتداء من القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وكان وراثيًا من حيث المبدأ ولو أنه لم يكن كذلك دائمًا بسبب التطورات والأحداث الطارئة سواء بفعل ظروف داخلية أو خارجية.

وكان يعاون الملك مجلس شيوخ يؤلف من أكثر التجار ثراء في المدينة، وكبار الملاحين وقباطنة البحار الذين كانوا يؤلفون جماعة لها نفوذها. وقد عرفت جبيل مثل هذا المجلس كما تذكر التوراة ولكنها لم تذكر عدد أعضائه، وكان لملك أوجاريت ٧٠ مستشارًا من الأشراف.

وكان في مقدور أعضاء مجلس الشيوخ في مدينة صور أو غيرها من المدن أن يتخذوا قرارًا في غيبة الملك، وفي مدينة صيدا كان في استطاعتهم متى شاءوا أن يتخذوا قرارات ضد قرارات الملك.

وقد بلغ هذا التطور - الذي طرأ على مجلس الشيوخ في مطلع الألف الأول قبل الميلاد- مداه بعد ذلك، حيث أصبح في إمكان رؤساء الأسر الثرية – ممن يمثلون الطبقة الإرستقراطية في المدن الفينيقية – الاستيلاء على الحكم والتخلص من النظام الملكي، ويعد هذا مماثلًا لما حدث من تطور سياسي في المدن اليونانية.

٢.٣ الحياة الإقتصادية:

١.٢.٣ الزراعة:

وصل الفينيقيون إلى مرحلة راقية في مجال الزراعة، فاستخدموا المحراث، بل وكانوا يستغلون الفيل كحيوان لجر المحراث في الزراعات الكبيرة، وكانت أكثر وسائل النقل استعمالا لديهم عربات ذات عجلتين تجرها أربعة خيول (شكل رقم ١)، وكان استخلاص الحب من سنابله يتم إما عن طريق مرور لوحة خشبية بأسفلها شظايا صوانية على السنابل، أو من خلال مركبة من خشب لها عجل بأسنان من حديد، أو أن يداس المحصول بأرجل الحيوانات.

٢.٢.٣ الصناعة:

اشتهر الفينيقيون في مجال الصناعة لاسيما صناعة الصباغة الأرجوانية، حيث عرفوا كيفية استخراج هذا الصباغ من المحار واحاطوا سر صنعه بأسطورة هي أن إله صور ملقارت كان يتنزه مع حبيبته قرب الشاطئ ومعه كلبه، فرأت الحبيبة لسان الكلب مصطبغًا باللون الأرجواني فطلبت من الإله ثوبًا بهذا اللون، فأوجد سر صنعه وعلمه للفينيقيين الذين عملوا على استخدامه في صبغ الأقمشة الصوفية والكتانية.

كذلك اشتهر الفينيقيون بصناعة الزجاج حتى أن المؤرخين اليونانيين والرومانيين يذكرون أن اكتشاف صناعة الزجاج كان على يد الفينيقيين، غير أنهم بالواقع يدينون بذلك إلى معلميهم المصريين والبابليين، وإن كانت صناعة الزجاج الفينيقية قد بلغت أكثر دقة وإتقانا مما كانت عليه صناعة الزجاج المصرية والعراقية.

وإلى جانب ذلك كان الفينيقيون يقلدون الحجارة الكريمة ويصنعون منها الكؤوس والعقود والمرايا. وقد دلت التنقيبات الأثرية أيضًا على انتشار صناعة الأواني الخزفية المزخرفة على نطاق واسع في مختلف المدن الفينيقة.

كما برع الفينيقيون بتزيين الجدران بقطع الزجاج الملونة كذلك ساعد توافر الأخشاب الكبيرة في فينيقيا على صناعة السفن في موانئ صيد وصور وجبيل، وكان المجدفون عادة من العبيد.

٣.٢.٣ التجارة:

كان ضيق منطقة فينيقيا وفقرها، وتكاثف السكان وكثرة المدن، وموقع الساحل الفينيقي الإستراتيجي بين الشرق والغرب والشمال والجنوب، وكثرة الاخشاب الصالحة لبناء السفن... كل هذا من العوامل التي دفعت الفينيقيين أن يتوجهوا بأنظارهم نحو البحر ويمارسوا التجارة البحرية على نطاق واسع، فكانوا بحق أول أمة بحرية في التاريخ.

وقد اتجه الفينيقيون في البداية إلى قبرص وأتوا منها بالمنتجات الزراعية والنحاسية، ثم اتجهوا بعد ذلك نحو مصر وأسسوا فيها المستودعات والمحطات التجارية، ثم تحولوا شمالًا نحو رودوس وكريت وعالم البحر الأسود وإيجة وعادوا من هناك بالأسماك المملحة والذهب والفضة والرصاص والقصدير، ثم ذهبوا إلى نقاط أبعد في حوض البحر الأبيض المتوسط، فوصلوا إلى صقلية ومالطة وعبروا مضيق جبل طارق إلى بحر الظلمات حتى وصلوا بروتونية في فرنسا، ومن هناك انطلقوا إلى سواحل انجلترا الغنية بالقصدير حتى أنهم كانوا يطلقون عليها بلاد القصدير.

وفي الألف الأول قبل الميلاد انتشرت المستعمرات الفينيقية التجارية في حوض البحر المتوسط، حيث نجح الفينيقيون في تأسيس عدة مدن في صقلية ومالطة وجزر البليار وعلى سواحل فرنسا وأسبانيا وشمال إفريقيا غير أن قرطاجة (قرب تونس الحالية وكان اسمها الفينيقي قارط هادشت بمعنى المدينة الجديدة) كانت أهم المستعمرات التجارية الفينيقية قاطبة، فقد استطاعت هذه المستعمرة ضم جزء كبير من الحوض الغربي للبحر المتوسط تحت سيطرتها، وظلت تتصارع مع الإمبراطورية الرومانية زمنًا طويلًا فيما يعرف باسم الحروب البونية، ولكن استطاع الرومان في النهاية الإستيلاء على قرطاجة في عام ١٤٦ قبل الميلاد، فهدموها وخربوها.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه رغم ادعاء الملوك الفينيقيين بالسلطة على مستعمراتهم غير أن سيطرتهم في الواقع كانت اسمية فقط على تلك المستعمرات باستثناء بعض الحالات النادرة، حيث كانت مستعمرات المدن الفينيقية بصورة عامة مستقلة عن المدينة الأم واقتصر الأمر على إقامة علاقات طيبة معها وتقديم بعض الضرائب أو الهدايا لمعبد الإله ملقارت في صور.

٣.٣ الفكر الديني:

كانت ديانة الفينيقيين تدور حول تقديس قوى ومظاهر الطبيعة شأنها في ذلك شأن ديانة معظم الساميين، وآلهة الفينيقيين أرضية تسكن في السهول والجبال والأنهار، ثم أصبح لبعضها صفات سماوية أو بحرية إلى جانب صفتها الأرضية، وهي أيضًا آلهة محلية فلكل مدينة إله خاص، ويطلق على كل معبود اسم بعل بمعنى سيد

أو مالك المدينة، فمثلًا وليس حصرًا الإله ملكارت يعني ملك المدينة (في صور).

وقدس الفينيقيون الآلهه المؤنثة وكانت الإلهة عندهم تعرف باسم بلعث، فبلعث جبيل هي عشتارت التي تقابل عشتار البابلية. وكان الجو عند الفينيقيين يمثل الإله الأب، بينما تمثل الأرض الإلهة الأم، أما الإله الأعلى فكان يعرف باسم إيل أو عليان، وهو الذي يوحد مع الإله بعل وكان يعد إله المطر والمحاصيل، وتعد الإلهة عشتارت إلهة الحب والحرب هي زوجته.

وقد مارس الفينيقيون الطقوس الدينية داخل المعابد أو خارجها وكانت تصنع للآلهة تماثيل توضع في زوايا المعابد التي كانت تضم إلى جانب الكهان والكاهنات عددًا من العاهرات المقدسات التي كانت تضحي بعذريتها في معبد عشتارت إذا أرادت أن تكسب رضا الآلهة.

وقد اعتقد الفينيقيون في البعث مثلما الحال في مصر الفرعونية، حيث عثر على بعض أواني الطعام والشراب وأدوات الزينة والأسلحة مع الموتى، كما يظهر أنهم تأثروا بما كان متبعًا عند المصريين، حيث كانت توابيتهم في الهيئة الآدمية كالتوابيت المصرية (شكل رقم ٢)، بالإضافة إلى تزينها كنظيرتها المصرية بنقوش وكتابات دينية ومنها نقوش تمثل الموكب الجنزي بما فيه من نائحات وحملة للقرابين (شكل رقم ٣).

وعلاوة على ذلك، فقد كان القوم يمارسون عادة التضحية بالأطفال عند تأسيس المباني الجديدة وهؤلاء كانوا يدفنون في أواني فخارية كانت توضع تحت أرضية المنزل. ومن أشهر أساطيرهم الدينية ملحمة تتحدث أن إله الموت (موت) يقتل إله النبات (عليان بعل)، غير أن صديقته الإلهة (عناة) تنتقم له، فيبعث حيًا الإله الصغير "عليان بعل" على غرار أوزيريس في مصر وتموز في بلاد الرافدين. وهناك أيضًا بعض القصائد الدينية التي تتحدث عن مآثر الأبطال كصراع سيد الأرض مع سيد البحر، و ترمز الأسطورة إلى ذلك بهجوم البحر على البر ثم تراجعه عنه.

٤.٣ اللغة والكتابة:

لا ينحصر فضل الفينيقيين على الإنسانية في ميدان المغامرات البحرية فحسب، ولا في ميدان الفنون والصناعات فحسب، بل يمتد أيضا ليشمل ميدان الثقافة والفكر، ذلك أن السفن الفينيقية لم تكن تحمل البضائع فحسب بل كانت تحمل المؤثرات الثقافية التي كان التجار الفينيقيون يحملونها معهم أينما ذهبوا.

ويعد اختراع الحروف الأبجدية أهم ما أعطاه الفينيقيون للحضارة الإنسانية، وقد اكتشفت أبجدية في مدينة أوجاريت تعود إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، ثم اكتشفت أبجدية أخرى في مدينة جبيل أحدث من أبجدية أوغاريت بحوالي قرن من الزمان، وتتألف هذه الأبجدية من ٢٢حرفًا ساكنًا تكتب من اليمين إلى اليسار.

وقد نقل اليونانيون هذه الأبجدية في القرن التاسع قبل الميلاد بعدما أدخلوا عليها بعض التعديلات، فكتبوها من الشمال إلى اليمين، كما ظلت بعض الأحرف اليونانية تحمل الاسم الفينيقي السابق مثل (ألفا) وكانت بالفينيقية (ألف) بمعنى ثور، وحرف (بيتا) وكانت بالفينيقية (بيت) بمعنى (المنزل). ثم انتقلت هذه الأبجدية من اليونانيين إلى الرومانيين لتصبح أساس الأبجدية الأوربية الحديثة، وكذلك نقل الآراميون أبجديتهم عن الفينيقية ثم أعطوها للعرب والهنود والأرمن وغيرهم من الشعوب الشرقية.

هذا وهناك من الباحثين من يرى أن الأبجدية وجدت أولًا في اللغة المصرية القديمة، حيث كانت هناك رموز تدل على حروف إلى جانب الرموز المستعملة ككلمات أو مقاطع وكل ما قام به الفينيقيون هو أنهم طوروا هذه الفكرة واستخدموا الرموز للدلالة على حروف فقط، ومع ذلك لم تصبح اللغة الفينيقية لغة دولية، وإنما كانت اللغة الأكدية هي التي تعد لغة دولية رسمية معترف بها.

هذا عن الأبجدية الفينيقية، أما عن الأدب الفينيقي، فلم يصلنا منه إلا وثائق قليلة؛ وذلك لأنه كان يكتب في معظمه على أوراق البردي، وهذه الأوراق قابلة للعطب، فتلفت بمرور الزمن ولم يبق منها إلا القليل، غير أن ما تبقى منها يشير في الوقت ذاته إلى أن النهضة الأدبية الفينيقة بلغت ذروتها في القرن السادس قبل الميلاد، وتمثلت في أحد الشعراء الفينيقين من أهل بيروت ألف مجموعة من الأشعار ترجمها إلى الإغريقية أحد أبناء بيبلوس في القرن الثامن الميلادي.

ومن حسن الطالع أن العبرانيين قد اقتبسوا أحسن ما في الأدب الفينيقي، وظهر صدى ذلك في كتبهم الدينية وفي شعرهم وحكمهم وأمثالهم المتمثلة في المزامير وفي ماورد في سفر التكوين وأقوال الأنبياء، وقد ظلت هذه الحقيقة مجهولة حتى كشفت مدينة أوجاريت الفينيقية، حيث كشفت في هذه المدينة ألواح من الصلصال عليها كتابات فينيقية بالقلم المسماري من سنة ١٤٠٠ قبل الميلاد، وقد أظهرت هذه الألواح أن العبرانيين اقتبسوا كثيرًا من تراث الفينيقيين، وخاصة بعض الأساطير التي تدور حول الصراع بين الخصب والجفاف أو بين الإنبات والموت ثم البعث وإن كنا نعتقد بأن هذه كلها يمكن إرجاعها في أصلها إلى أسطورة أوزير المصرية.